تراث العرب

« تراث العرب » : أشرف عليه الدكتور نبيه أمين فارس ، فى ى + ٢٧٩ صفحة من قطع الثمن ، وبه ١٢ لوحة بها ١٨ شكلا من الفن الاسلامى . مطبعة جامعة برنستون فى برنستون ، نيوجرسى بأمريكا ، سنة ١٩٤٤ .

فى هذا الكتاب القيم صورة شعبية لطائفة من المحاضرات التى ألقيت صيف سنة١٩٤١ فىالدورة الصيفية لقسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة برنستون ، وهى تتناول جملة من المسائل التى تتصل بالمرافق الروحية المختلفة للتراث العربى ، حتى انها لتعطى صورة واضحة للوجوه الرئيسية لهذا التراث . وما قصد منها أصحابها اعطاء صور اجمالية بقدر ما قصدوا الى معالجة مسائل جزئية أو بيان ملامح عامة ، وعلى هذا الأساس يجب أن نقدر هذا الكتاب . فاذا رأينا فصلا كالفصل الذى عقده رتشرد اتنجوزن Richard Ettinghausen عن «طابع الفن الاسلامى» (من ص ٢٥١ — ص ٢٦٧) لا يكاد يتناول الا نقاضا مجملة متناثرة تتصل بتأثير روح الاسلام فى الفن الاسلامى ، فما هذا الا لأنه اقتصر على هذه الناحية ، وان كانت معالجته اياها يعوزها شىء من العمق والاتصال فى الأفكار .

ولعل من خير هذه الدراسات تلك التى قام بها ليفى دلافيدا G. Levi Della Vida عن «بلاد العرب قبل الاسلام» ؛ فانها على الرغم من أنها لا تكاد تأتى بجديد ، بل تعمل فى نتائج الأبحاث التى قام

(١) The Arab Heritage, edited by Nabih Amin Faris, Primeeqen University at Primcater.

بها فنكلر وهمل ودوتى ، ففيها مع ذلك اثارات مفيدة للمشاكل الرئيسية التى تدعوها تلك الأبحاث الفيلولوجية . ومن أهمها مسألة نشأة حضارة بلاد العرب الجنوبية ، فمن المعـــروف أن أولئك الباحثين يميلون الى ردها الى الحضارة السومرية فى بلاد العراق ، لكن ليفى دلافيدا يثير اعتراضات لها حظها من الوجاهة مثل جهل العرب الجنوبيين بالكتابة المسمارية واختلاف المعمار ثم تباين الأنظمة السياسية والدينية . ونرى نحن من جانبنا أن الخطأ فى هذا الفرض وأمثاله ناشىء من عدم الفهم لطبيعة الحضارات ومحاولة رد الواحدة الى الأخرى بأى ثمن ، شأن مؤرخى القرن الماضى . ولهذا نرى أن حضارة بلاد العرب الجنوبية يجب أن تدخل ضمن دائرة حضارة أخرى ، هى الحضارة العربية . ولو فسرت وفقا لروح تلك الحضارة كما حددناها فى مواضع عدة من مؤلفاتنا (« الالحاد فى الاسلام » ، « اشبنجلر » ، « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ») لتبدت فى ضـــوء جديد يستطيع أن يكشف عن كل تلك المشـــاكل المزعومة . لهذا نلفت أنظار الباحثين الى دراسة حضـــارة بلاد العرب الجنوبية على أساس أنها المهد الأول للحضارة العربيـــة بالمعنى المفهوم لدنيا ، وفيها تظهر روحها . على أن جهلنا بتاريخ بلاد العرب الشمالية لا يقل ان لم يزد عن جهلنا بتاريخ بلاد العرب الجنوبية ، خصوصا فيما قبل العصر الهلينى ، منـــذ أن ظهر العرب كعنصر حقيقى ناضل بقوة واستمرار ضد الملوك الأشوريين من سرجون الثانى حتى أشور بانيبال . على أن هذا الجهل ينزاح شيئا فشيئا لما أن غزا الاسكندر الشرق وتلاه أخلافه السلوقيون . ففى القرن الثالث قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك نشأت أول دولة عربية شمالية بلغت مبلغا بارزا فى الحياة الدولية ، وذلك لما أن قامت دولة النبطيين فى تلك المنطقة التى يحدها البحر الميت وخليج العقبة ، وكانت لهم بلاد ذات شأن ممتاز مثل سلع (بترا) وجرش .

ثم يعرض الأستاذ ليفى دلافيدا لقيام دولة اللحيانيين التى يرى أنها

قامت بعد انحلال الدول العربية الجنوبية وكانت لعهد طويل تحت سيطرة النبطيين ثم ازدهرت بعد زوال دولة هؤلاء ، وان كان غيره مثل د. هـ. ملر D. H. Müller يرى ، وهو الخبير كل الخبرة بنقوش اللحيانيين ، أن مملكتهم أقدم بكثير جدا من ذلك العهد . كما يعرض لدولة ثمود التى كان مركزها مدين حيث وجد العالم التشيكى موسيل Musil بقايا معبد ونقشا باللغتين اليونانية والنبطية فيه ذكر لثمود .

فاذا ما انتقل الى العصر السابق مباشرة على الاسلام وجد أمر التأريخ لتلك الفترة أشد عسرا ، لأن الوثائق الباقية عنها أكثرها ذات طابع أدبى ، بينما الوثائق الخاصة بالعهد الأقدم كانت نقوشا وبالتالى أصدق وأوضح دلالة . فعلى الرغم من وفرة الأخبار الأدبية عن تلك الفترة وفرة هائلة جدا ، فانها لا تكاد تساوى فى قيمتها شيئا من تلك النقوش القليلة الباقية من العصر الأقدم . على أن المؤلف قد حاول أن يقدم صورة اجمالية واضحة عن تاريخ تلك الفترة .

وختم ليفى دلافيدا فصله القيم هذا بمراجع وفيرة تكاد تستغرق كل الأبحاث الرئيسية فى هذا الباب . ويتلو هذا الفصل فصل عن « أصول الاسلام : دراسة فى المحيط والأساس » كتبه جولين أوبرمن Julian Obermann وفيه يتعرض لتلك الناحية الشائكة غير المألوفة فى دراساتنا الشرقية وهى ناحية الصلة بين الاسلام والدينين الكتابيين : اليهودية والمسيحية ، فيدرس ويبين ما هنالك من تواز بين العقائد والتيارات والمؤسسات الدينية فى الأديان الثلاثة . وهو يمهد لهذا ببيان تأثير هذين الدينين فى بلاد العرب قبل الاسلام ، خصوصا فى المدينة وعن طريقها فى مكة لما كان ثمت من روابط وثيقة بين كلتا المدينتين اللتين كانت أولاهما تنطوى على جالية يهودية جليلة الشأن ؛ وكيف كان هذا النفوذ متباين المنافذ بلغ قلب الجزيرة فى مكة والمدينة من طرق عدة . ثم أخذ فى دراسة مسائل جزئية مثل « الكتاب » و « أو الكتاب » على

أساس أنها معان يهودية مسيحية ، ويسوق الشواهد من القرآن والكتاب المقدس بقسميه للتدليل على ما يريد الوصول اليه . ويعنى بتقسيم السور الى أربعة مجاميع تمثل الأدوار الأربعة لحياة الرسول ويحلل القسم الأول منها . والغاية التى يستهدفها المؤلف من وراء هذا كله أن يبين نصيب كل من اليهودية والمسيحية فى تكوين الاسلام ، وهو يجرى هنا فى اثر الأبحاث التى قام بها خصوصا جولد تشيهر ثم فنسنك ، ولا يمكن الدخول فى تفاصيلها هنا أو مناقشتها اذ لا يتسع لها هذا المجال .

ونمر عابرين بمقال جرينبوم Gustave von Grünebaum عن « نمو الشعر العربى » ثم مقال الدكتور نبيه فارس عن « الغزالى » بوصفه ممثل طابع الرجل المسلم خير تمثيل ، لأنهما لا يدخلان فى باب هذه المجلة ، ونمضى الى مقال جون ل. لامونت John L. Lamonte عن « الحرب الصليبية والجهاد » فنجد المؤلف يعرض « للدوافع الدينية فى الحروب الصليبية والحروب الاسلامية ضد اللاتين فى سوريا ابان القرنين الثانى والثالث عشر » ؛ لهذا يعنى بتحليل فكرة الحرب الصليبية كفكرة دينية ، وبتحليل ما يناظرها عند المسلمين فى ذلك العهد ، أعنى فكرة الجهاد فى سبيل الله حتى تتم الغلبة للاسلام . على أنه لا يرى هذا الدافع الدينى فى الحرب الصليبية الا فى الحملات الأولى ، أما بعد استقرار الأمر للصليبيين فى بلاد الاسلام فقد ضاع المعنى الدينى ، ويرى فى هذا دليل زيادة فى المدنية والتحضر عند الفرنجة ، على عكس ما فعله فترى Vitry وجروسيه Grousset اللذان وجدا فى هذا علامة انحلال دب دبيبه فى أولئك الفرنجة . والمؤلف يتابع هذه الفكرة فى تحليله المتصل لأدوار الحروب الصليبية كلها حتى يأتى عليها وعلى ملامحها البارزة فى عرض لا يخلو من التشويق والآراء الجديدة . ولهذا فان هذا البحث على صغره يقدم فكرة دقيقة عن روح الحروب الصليبية والجهاد الاسلامى المضاد لها ، وما مرت به تلك الأرواح من أدوار . وفيه

انصاف للجانب الاسلامى من تلك الحروب بما لا نكاد نجد له نظيرا من الكتاب الأوربيين الآخرين ، لأن المؤلف كان على علم جيد بروايتى الطرفين المتنازعين . ولذا يحسن قراءة مثل هذا الفصل الى جانب كتب جروسيه ، وبخاصة كتابه الأخير « ملحمة الحروب الصليبية (باريس سنة ١٩٤٧ » .

ثمت فصل شائق عقده هنرى ل. سفج Henry L. Savage « للقدس والقاهرة فى القرن الرابع عشر فى نظر غربيين » ، وفيه يحدثنا عن أحد أولئك الحجاج الذين كانوا يفدون الى بلاد المشرق من أوربا ، وهو أوجييه Ogier بارون انجلير Anglure الثامن ، وانجلير هذه التى فيها أسرة هذا النبيل تقع على مسافة ثلاثين ميلا تقريبا جنوب شرقى ابرنيه وعلى خمسة وعشرين ميلا تقريبا جنوب غربى تروا فى اقليم المارن بفرنسا . وهذا البارون قد قام « برحلته المقدسة » هذه لأنه تجرى فى عروقه دماء صليبية اذ شارك أحد أجداده فى الحملة الصليبية التى قادها فيليب أوجست وقلب الأسد سنة ١١٩٠ ؛ ثم لحادث آخر مع فتاة سرعان ما شكته الى الملك فلم يعف عنه الا بشرط التكفير بهذه الرحلة الشاقة الى البلاد المقدسة . ولقد بلغ هذا الحاج القاهرة فى الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٣٩٥ ، فبهره وصحبه ضخامتها وجمالها وثراؤها ووفرة مساجدها . ثم عاد الى بلاده بعد أن زود برسائل الى فرنسا فى الثانى والعشرين من شهر يونيو سنة ١٣٩٦ . ولعل هذا الفصل من أجمل فصول الكتاب لما فيه من طرافة وحسن عرض .

وفى الكتاب يعد هذا فصل عن « تطور التفكير العلمى عند العرب » لادورد جورجى ، وفصل عن « الدراسات العربية فى أمريكا » . وكل فصل من فصوله قد ختم بثبت مراجع يتفاوت وفقا لاتساع الأبحاث فى الموضوعات المعالجة .

وليس من شك فى أن الكتاب فى مجموعه يعطى للقارىء العادى ، بل للباحث ، صورة عامة واضحة ، قد لا تخلو فى بعض المواضيع من العمق والدقة ، عن التراث العربى فى توقف مظاهره ؛ ويخدم الهدف الذى رمى اليه وهو زيادة التعرف بين الغرب والعالم العربى ؛ كما يثير أمام الباحثين طائفة من المسائل والمشاكل التى تدعو الى مواصلة البحث وموالاة التفكير .

عبد الرحمن بدوى